Necmettin Erbakan Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi, 42, 2016, s. 255-278.

– Hakemli Makale –

فِقْهُ الخَنْدَقِ الوَاحِد
(دراسةٌ تَحْلِيليَّةٌ تَأصِيليَّةٌ في أَكْنَافِ أُخُوَّةِ الإسلام)

د. عماد كنعان
İmad Kenan
Yrd. Doç. Dr., Fethu'l-İslam Enstitüsü ve Dımeşk Üniversitesi Eski Öğretim Üyesi; Kilis 7 Aralık Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Öğretim Üyesi
dr.emadkanaan@gmail.com

Ortak Hendek Anlayışı: İslam Kardeşliği Hakkında Tahlili Bir Araştırma

Bu çalışma, Kuran-ı Kerim ve Sünneti Nebevide geçen İslam kardeşliği ilkeleri ışığında birliktelik içerisinde çalışma prensibini incelemeyi hedeflemektedir.

Araştırmacı Müslümanlar arasındaki ilişki dayanaklarının oluşumunda İslami yöntemin tespit edilmesini, tümevarım ve tümdengelim yöntemleri aracılığıyla betimsel metodu ve dokümanter metodu kullanmıştır. İhtilafın halkların ve ülkelerin çözülemeyen bir hastalığı olduğunu vurgulayarak İslam ümmetinin şimdiki durumu ile geçmişteki durumunu karşılaştırmayla başlamıştır. İslam kardeşliğinin özellikleri, getirileri ve götürüleri gibi üç odaktan betimlenen zorunlu İslam birliğinin yapılanması yollarının belirlenmesini analiz etmektedir.

Çalışma, batılın ümmet düşmanlarını bir araya getirirken hakkın bizleri bölmesi durumunun doğru olamayacağını, bu yüzden birliğin İslami bir gereklilik olduğu sonucuna varmıştır. Çalışma, dayandığı dokümanter yöntemin yararının önemli olduğunu önermekte, bununla birlikte İslami eğitimin düşünce zenginliğini ve son din İslam'ın çok yöntemli ve çok amaçlı yönünün kardeşlik ilkelerinin yerleştirilmesinde ilk olduğunu ortaya koyan çalışmaların yapılmasını tavsiye etmektedir.

Anahtar kelimeler: Birliktelik, Kardeşlik, Ümmet, Çoğulculuk, Eğitim

الملخص

هدفت الدراسة إلى تحليل وتأصيل مبدأ العمل في خندق واحد في ضوء مبادئ أخوة الإسلام الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية .

واستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي والمنهج التوثيقي التأصيلي عبر أداتي الاستقراء والاستنتاج للتعرف إلى منهج الإسلام في تمكين دعائم العلاقات البينية بين المسلمين؛ ثم شَرَعَ بمقارنة واقع الأمة المسلمة بماضيها مؤكداً أن الشِّقاقُ عِلَّةُ الأُمَمِ وبلاؤها المُعْضِل؛ وذلك بالاعتماد على منهج بحثي يقوم على التوثيق للأدلة الشرعية، ثم تحليلها لتحديد سبل بناء الوحدة الإسلامية المفروضة التي تقوم على توصيف محاور ثلاثة: ملامحُ أُخَوَّةِ الإسلام، مغانمُ أُخُوَّةِ الإسلام، مُذْهِبَاتُ أُخُوَّةِ الإسلام.

وخلصت الدراسة إلى أن مبدأ العمل في خندق واحد هو فريضة إسلامية حيث لا يستقيم بحال أن يَجْمَع أعداء الأمة الباطلُ ويُفَرِّقُنَا الحَقُّ؛ وتوصي الدراسة بالإفادة من منهج التأصيل الذي اعتمدته والعمل على تطويره بغية إنجاز دراسات توثق ثراء الفكر التربوي الإسلامي وسبقه في إرساء مبادئ التآخي عبر إظهار تعدد أساليب الشريعة الخاتمة وتنوع غاياتها.

المُقَدِّمة

إن الأفكار القادمات اللَّواتي أُنْبِتْنَ في أكناف تجاربَ إنسانيَّةٍ ثَرَّةٍ هي ليست ضرباً من التنزيل، وليست حكمةً بالغةً، بل هي قطافُ أسفار مداولة الأيام بين النَّاس، قد تُعَزِّزُها تجاربُ أخرى وتُزكِّيها، وقد تَصْقُلُهَا تجارب أَنْفَسُ فَتُحَسِّنُهَا.

إن غاية الطموح، ومنتهى الأمل من القارئ الكريم، أن يُعْمِلَ فيما يقرأ من عناوين تماثلت مقاصدها، وتباينت موضوعاتها؛ عقله الناقد الحُرَّ، وبصيرته النَّافذة الحَيَّة، وضميره الحَيَّ اليَقِظَ.

كما أننا ننشد من مقام القارئ الحبيب جُهْدَ عقلٍ مُنْصِفٍ وَقَّافٍ عند الحَقِّ، ومُحَاكَمَةَ بصيرةٍ نافذةٍ تستضيء بأنوار خشية الله سبحانه، وحُسْنَ الإصغاءِ لِوَعْظِ ضميرٍ أينعت فيه حدائق الذِّكْرِ والتفكُّر، فإننا نحسبه – والله حَسِيْبُهُ – لا يَعْمَدُ إلى إطلاق الأحكام جُزَافاً، إذ إنه يَفْقَهُ مَغَبَّةَ الولوج في محظورات قوله عليه الصلاة والسلام: «إن العبد ليتكلَّمُ بالكلمة، ما يَتَبَيَّنُ ما فيها، يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»(1).

وإننا ندعوه مستبشرين به أنفع الخير – وكيف لا يثمر المسلم عن بركةٍ وهو الذي كُلُّهُ خير – أن يتمعَّنَ بعمقٍ وشمولٍ في مقالة الشَّيخ الإمام العالِمِ المحقِّقِ جلال الدِّين المحلَّي الشَّافعيُّ إذ يقول في هذا المعنى كلاماً يحاكي نقاءَ الفطرة، ويناغي صفو خمائل السريرة، ويصحبك إلى بوادٍ ونجودٍ مرة، ويتطوَّفُ برفقتك على واحاتٍ ووهادٍ في ظلال مرة أخرى: (وقد أفرغت لِمُكْمِلٍ وعليه في الآيِ المتشابهة الاعتماد والمُعَوَّل، فرحم الله امرأً نظر بعين الإنصاف إليه، ووقف فيه على خطأ فأطلعني عليه، وقد قلت:

حمدت اللَّه رَبِّي إذ هداني لِمَا أبديتُ مع عجزي وضعْفِي

فَمَنْ لي بالخطأ فأردُّ عنه ومن لي بالقبول ولو بحَرْفِ

(1) مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، ترقيم مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار الدعوة –دار سحنون، الطبعة الثانية، القاهرة، 1992م.: كتاب الزهد والرقائق، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار، حديث:(5415).

هذا ولم يكن قَطُّ في خَلَدِي أن أتعرَّض لذلك لعلمي بالعجز عن الخوض في هذه المسالك، وعسى اللَّه أن ينفع به نفعًا جمًّا، ويفتح به قُلُوبًا غلفًا، وأَعْيُنًا وآذَانًا صُمًّا)(2).

قرارُ مغامرةٍ ومغامرةُ قرارٍ

إن الإقدام على اختيار الخِلَّان قرارُ مغامرةٍ ومغامرةُ قرارٍ، فينبغي فيه للمؤمن الكيِّسِ الفَطِنِ الذي تَظَلُّ شريعته السماوية حِرْزَاً أميناً لمقوِّمات سعادته في الدَّارين، أن يَنْظُرَ رأي الشريعة في ماهيَّةِ دوافع اتخاذ الخِلَّان، ومعايير انتقائهم، ثُمَّ يقابل رأي دِيْنِهِ – الذي اعتقد به بملء إرادته – بتفاصيل توجُّهِهِ، ولسان حاله قبل مَقَالِهِ يردد قائلاً: سمعنا وأطعنا، وأمرنا لله أسلمنا، رضينا بما يرضاه رَبُّنَا لنا، وبذلك تتطهر – بتوفيق الله تبارك وتعالى – ظنون قلبه، وتتهذَّب أفكار عقله.

إن الشريعة الإسلامية تدعو أبناءها إلى أن يكون الدافع الأوحد، والمحرك الأقوى، الذي في ضوئه يتخذون بعض النَّاس إخواناً، هو المحبة في الله تعالى ولله سبحانه وحده من دون سواه، فتنتفي بذلك احتمالات دنيوية وضيعة؛ مثل مال يطمعُ أن يَجْنِيَهُ، أو امرأة يتطلَّعُ أن ينكحها، أو جَاهٍ يسيل لعابه رجاء أن يحظى به.

فأنا الإنسان المسلم عندما أختار أَخَاً لي ليكون رفيقاً لدربي وخليلاً لعمري، فإنها تنحصر دوافع انتخابه من دون غيره في رغبةٍ صادقةٍ يتيمةٍ تستوطن قلبي بحيث يكون مفادها: أنا أريدك أَخَاً لي في الدنيا والآخرة، ثُمَّ لا ألبس أن أسارع إلى مصارحته بمحركات حُبِّيَ اليتيمة له: «إِنِّي أُحِبُّكَ في الله»، ليجيبني هذا الحبيب في الله: «أَحَبَّكَ الذي أحببتني له»(3).

ثُمَّ إذا ما سكنت نفوس الخِلَّان واطمأَنَّت، وتَآخَتْ أرواحهم واستقرَّت، فإن الأسوار المنيعة التي تحفظ ديمومة تواصلهم الطيب، هي تحكيم مبادئ الإسلام ومُثُلِهِ في أحوالهم كافة.

فالعطاء فيما بينهما لله تعالى شعاراته الراسخة هي: (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) [الإنسان: 9]، (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى) [الليل: 18 – 20].

(2) جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي: تفسير الجلالين، دار الحديث، الطبعة الأولى القاهرة د – ت. (1/ 279).

(3) سليمان بن الأشعث أبو داود السِّجِسْتاني: سنن أبي داود، تحقيق مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، د–ت. كتاب الأدب، أبواب النوم، باب إخبار الرَّجلِ الرَّجلُ بمحبته إيَّاه، حديث: (4481).

فأنا أمنح صديقي عوناً أيّاً كان شكله سواء كان مالاً أَبْذُلُهُ، أو نُصْرَةً انهَضُ بها، أو طعاماً أَجُوْدُ به، مرتقباً في كل ذلك رضى الله وحده عني، ومثوبته التي هي أَغْنَى عندي، قال صاحب الشريعة الخاتمة صلوات ربي وسلامه عليه: «إن الله في عَوْنِ العبد ما كان المرء في عون أخيه»(4).

لقد خَصَّ الله سبحانه المسلمين بنعمة عظيمة من دون غيرهم من الخَلْقِ إذ جمعهم تباركت أسماؤه في ظلال مِنْحَةِ الأُخُوَّةِ في الله التي تُوَصِّفُ أحوالهم، وتحدد حقوقهم وواجباتهم، قال تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) [آل عمران: 103].

وقد بيَّنت الشريعة الإسلامية الغراء أن للروابط التي تجمع بين المسلمين ملامح تُشَخِّصُها، ومكاسب تحققها، وماحقاتٍ تقوِّضها، ولم يدع فقه الأُخُوَّةِ في الإسلام جانباً يتعلَّق بتفاصيل العلاقة بين إِخْوَةِ الدِّين في مختلف مناحي الحياة فارغاً من وَصْفَاتٍ آمنةٍ تبقي المسلمين أفراداً وأُمَّةً في أكناف حصون مَكِيْنَةٍ.

ويتأتى لنا إيجاز مبادئ الشريعة وأحكامها التي تحفظ القلوب صافية، والعقول متفتِّحة، والبيوت مستقرة، والجماعات متوادَّة، والأُمَّةَ منيعة، من خلال إِيغَالِ التَبَصُّرِ في نفحات الأنوار المُقْبِلَةِ:

أولاً.. ملامحُ أُخَوَّةِ الإسلام:

تُمِيِّزُ الشريعة الإسلامية أتباعها من المسلمين عن غيرهم بالعديد من الأقوال والأفعال، فشمائل المسلم العَلِّيَةُ، وسجاياه النَّدِيَّةُ، تجعله بين النَّاس نظير زهرة السوسن الزرقاء التي نفضت عن كاهل أوراقها الرقيقة الغَضَّةِ قسوة ذرَّات الثلج العنيدة التي أسرفت في احتضان أطراف الزهرة الفتية في موسم شتاء كاسح، ومع أول فرصة سانحة ما لبثت أن انبثقت أحلام الزهرة الفاتنة من رحم سفحٍ تَلَّةٍ عذراء قد اكتست بأبهج أثواب الثلج البيضاء الناصعة، وما إن تماثلت الزهرة ببهرجها حتى سَحَرَتْ وَجْنَاتُهَا الزرقاء رفاقها من أزاهير مروج التلال المجاورة، وسبى لُبَّ أسيادها من الأشجار القاطنة فوق مرتفعات الجبال المتغطرسة.

إن المسلم هو أُمَّةٌ وحده، مختلف في الشمول والعمق عن غيره من الخَلْق، فهو يغدو لاهِجَاً بالذِّكر مع إشراقة الصباح الباكر، ويؤوب غافياً على قُرُبَاتِ الذِّكر بعد أن تنعس سائر النجوم وتذبل فتيلة القمر البهيَّة، وهو يمضي سائر يومه بين صلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر، وصيام يحول بينه وبين ما يمحق البركات ويقرب الكربات، فللَّه دَرُّهُ وقد سَلِمَ النَّاس من شرور عينيه وأذنيه، وبطش كلتا يديه، وجور كلتا رجليه، وغَدْرِ ما بين فَكَّيْهِ وفَخِذَيْهِ، وحتى أنه كَفَّ عن

(4) سـليمان بن أحمد أبو القاسـم الطبراني: المعجم الأوسـط، تحقيق طارق بن عوض الله بن مُحَمَّد ، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، د– ت.باب العين، باب الميم من اسمه : محمد، حديث: (5772).

القوم ممن حوله هفوات ظنون السوء في قلبه، وإن وُجِدَ المسلم على غير ذلك الحال من الكمال، فهو على أبناء أُمَّتِهِ عالةٌ، وفيما بين صفوفهم دخيل.

وإن من ملامح أخوة الإسلام الخاصة أن تجد المسلمين في دنياهم كأنهم ملائكة سيَّارة تَحُفُّ النَّاس برحماتها، فهم على هذه الأحوال الحميدة الآتية ما رأيتهم:

1- الوحدةُ مَنْهَجُهُم: إن المسلمين شركاء في السراء، ومتعاونون في الضراء، همُّهم واحد، وأملهم واحد، لا يؤمِنُ أحدهم إن شَبِعَ وأَخٌ له جائع، أو أَمِنَ وأَخٌ له فَزِعٌ، أو لَبِسَ وأَخٌ له عارٍ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم؛ مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ، تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّى»(5)، وقال الصادق الأمين أيضاً: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدُّ بعضه بعضاً» وشبك أصابعه(6).

2- الحُبُّ في الله غَايَتُهُم: في محافل المسلمين تسقط منظومة المصالح الدنيئة، وفي بيوتاتهم تسود ثقافة الإيثار، وحتى أنها تكاد تنقرض عند صغارهم تصرفات تَنُمُّ عن الأَثَرَةِ أو تُدَلِّلُ على الشُّحِ، فهم لا دافع يحثُّهم على العطاء إلا السعي لنيل مرضاة الله تعالى، فمثلهم مثل مهاجرين إلى الله لا غاية لهم سواه، وإن من حصاد هذه المحبة شيوعَ السكينة في مجتمعاتهم، وبَسْطَ السعادة على ذويهم، ناهيك عن تحقق الغاية الأسمى المتمثِّلة بفوزهم الأكبر بمقعد صدق عند مليك مقتدر.

فعن أنس بن مالك، عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أَحَبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحِبَّ المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النَّار»(7)، وعن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن ربه تبارك وتعالى: «حَقَّتْ محبَّتي على المتحابِّين فِيَّ، وحَقَّتْ محبَّتي على المتناصحين فِيَّ، وحَقَّتْ محبَّتي على المتزاورين فِيَّ، وحَقَّتْ محبَّتي على المتباذلين فِيَّ، وهم على منابر من نور، يغبطهم النَّبِيُّون والصِّدِّيقون بمكانهم»(8)، وعن ابن مسعود رضي الله

(5) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث: (4791).

(6) مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، تحقيق مصطفى البغا، دار العلوم الإنسانية، الطبعة الثانية، دمشق، 1993م: كتاب الصلاة، أبواب استقبال القبلة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، حديث: (469).

(7) البخاري: كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، حديث: (16).

(8) مُحَمَّد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت،1993م.كتاب البر والإحسان، باب الصحبة والمجالسة، ذكر إيجاب محبة الله للمتناصحين والمتباذلين فيه، حديث: (578).

عنه، عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «المتحابُّون على عمودٍ من ياقوتة حمراء، مشرفين على أهل الدنيا، قال: فيقول أهل الجنَّة: اخرجوا بنا ننظر إلى المتحابِّين في الله عز وجل، قال: فيخرجون، فينظرون إليهم، وجوههم مثل ليلة البدر، مكتوب في جباههم: هؤلاء المتحابُّون في الله عز وجل»(9).

3- التَعَاضُدُ دَأْبُهُم: إن ثقافة اقتسام الرغيف هي إحدى مخرجات منهجٍ أصيلٍ أُنْبِتَ عليه المسلمون نباتاً حسناً، وما أكثر الحوادث الطارئة التي نزلت بديار المسلمين سواء جاءت من بطش الطبيعة كالزلازل وغيرها، أو كانت من تِيْهِ الإنسان كالحروب وويلها، ولقد كان المسلمون يثبتون على الدوام أنهم أُمَّةٌ واحدةٌ، لا تفرقها النوازل أو تمزقها المُلِمَّات، بل إنها تشدُّ من حلقات المسلمين، وتقوي من بأسهم، فطالما هَبَّ المسلمون إلى عون بعضهم، ورَأْبِ صدعهم، ولَمِّ شملهم، وستر عوراتهم، في مشاهد مشرِّفة تؤكد متانة حبل الدِّيْنِ الذي يجمعهم، ورسوخ اليقين بالله الذي خَلَقَهُم.

فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يَحْقِرُهُ، التقوى هاهنا – ويشير إلى صدره ثلاث مرات –، بحسب امرئٍ من الشر أن يَحْقِرَ أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه»(10)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلِمُهُ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كُرْبَةً، فرَّج الله عنه كُرْبَةً من كُرُبَاتِ يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» (11).

4- التناصرُ قِبْلَتُهُم: إن هذا الخُلق الكريم يمثِّل صمَّام الأمان لوجود المسلمين، فالأُمَّةُ أمسى التكالب عليها عِلْمٌ له مدارسٌ وأكاديميَّاتٌ تدرِّسه، وميزانيَّات فَلَكِيَّةٌ نَفَقَاتُهَا تُمَوِّلُهُ، ومؤسسات دولية تقوده، وسياسات استراتيجية تتبنَّاه، ومن ينكر هذه الحقيقة البَلجَاء، فإن فيه إما حمقاً قاتلاً، أو كيداً فاجراً، أو ما لا يعلمه إلا الله من شرور الدنيا جمعاء، فإنه (لم يحدث في تاريخ الأُمَّةِ الإسلامية أن تكالب عليها أعداءها بمثل الضراوة التي يكالبون بها عليها في الوقت الحاضر، فالمسلمون يذبحون ويقتلون في كل مكان غلب عليه أعداؤهم، ويشردون من أرضهم وأموالهم، ويسلط عليهم أعداء من داخلهم أو من خارجهم يحكمونهم بغير ما أنزل الله، لحساب أعدائهم الذين لا يؤمنون بلا إله إلا الله، وينتقص الوطن الإسلامي مرة بعد مرة بإقامة دول غير إسلامية في أرضه، وتفتت

(9) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، تنسيق سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري، دار العاصمة – دار الغيث، الطبعة الأولى، السعودية، 1419هـ. كتاب الأدب، باب الحب، حديث: (2819).

(10) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، حديث: (4756).

(11) البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يُسْلِمُهُ، حديث: (2330).

وحدته، ثُمَّ تقسم الدولة منه إلى دويلات، والفقر والجهل والمرض يتفشى في العالم الإسلامي على الرغم من أن تربته تحوي أكبر ثروات العالم على الإطلاق)(12).

وفي ضوء مخاطر هذه المستجدات تتأكد فريضة نصرة المؤمنين بعضهم بعضاً، وإغاثة مستضعفهم تمسي حقاً واجباً له على أبناء دينه من باب فرض العين، وإنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض، ومن انتظر الطوفان حتى يأتي بيته فهو أرعن، ومن استضاء بنار تحرق بيت جاره فَكَبِّرْ عليه أربعاً لوفاته، ومن لم يَرَ في شذوذ ولده ما يعيبه فهو وذوات الأربع صنوان.

(إن خُذْلَانَ المسلم شيء عظيم، وهو – إن حدث – ذريعة خُذْلَانِ المسلمين جميعاً، إذ سيقضى على خِلَالِ الإباء والشهامة بينهم، وسيخنع المظلوم طوعاً أو كرهاً لِمَا وقع به من ضيم، ثُمَّ ينزوي بعيداً وتتقطَّع عرى الأُخُوَّةِ بينه وبين من خذلوه.

وقد هان المسلمون أفراداً، وهانوا أمماً يوم وهت أواصر الأُخُوَّةِ بينهم، ونظر أحدهم إلى الآخر نظرة استغراب وتنكُّر، وأصبح الأخ يُنْتَقَصُ أمام أخيه فيهُزُّ كتفيه ويمضي لشأنه كأن الأمر لا يعنيه!

إن هذا التخاذل جَرَّ على المسلمين الذُّلَّ والعار، وقد حاربه الإسلام حرباً شعواء، ولعن من يقبعون في ظلاله الداكنة الزَّرِّية)(13).

وقد حدثنا جابر أنه اقتتل في مدينة النُّبُوَّةِ غلامان؛ غلام من المهاجرين، وغلام من الأنصار، فنادى المهاجر أو المهاجرون، يا للمهاجرين؟! ونادى الأنصاري يا للأنصار، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «ما هذا..! دعوى أهل الجاهلية»، قالوا: لا يا رسول الله: إلا أن غلامين اقتتلا، فَكَسَعَ(14) أحدهما الآخر، قال: «فلا بأس؛ ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينهه، فإنه له نَصْرٌ، وإن كان مظلوماً فلينصره»(15). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يَقِفَنَّ عند رجل يُقتلُ مظلوماً ؛ فإن اللَّعنة تَنْزِلُ على من حَضَرَهُ حيث لم يَدْفَعُوا عنه، ولا تَقِفْ

(12) قطب: ركائز الإيمان، دار الشروق، الطبعة الأولى، 2001م. ص (376).

(13) مُحَمَّد الغزالي: أخلاق المسلم، دار الريان، الطبعة الأولى، القاهرة، 1987م. ص (174).

(14) فَكَسَعَ: أي ضرب دبره وعجيزته بيدٍ أو رجلٍ أو سيفٍ وغيره.

(15) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، حديث: (4787).

عند رجل يضرب مظلوماً ؛ فإن اللَّعنة تَنْزِلُ على من حَضَرَهُ حيث لم يَدْفَعُوا عنه»(16). وقال الحبيب المجتبى أيضاً: «من خاصم لضعيفٍ حتى يَثْبُتَ له حَقُّهُ ثَبَّتَ الله قدميه يوم تَزِلُّ الأقدام»(17).

5- الأُلْفَةُ واللِّيْنُ سجيَّتُهُم: ما أبعد الخير عن النفس والهوى والشيطان، وما أيسر على المرء أنْ يُلِمَّ بعيوب الدنيا ونقائصها مجتمعة، وكيف لا يمكنه ذلك وقد حُفَّتِ النَّار بالشهوات، وتوارت الجِنَانُ من وراء المكاره، إنك لن تستطيع أن تكون كريماً حتى تنفق مما تحب، ولا شجاعاً حتى تبتلى بِمُضْني الشدائد، ومن نراهم فيما بين ظهرانينا وقد التفت قلوب النَّاس من حولهم هم الخاصة الذين آتاهم الله من فضله، ولتعلم أن هؤلاء الأكارم قد بذلوا المُهَجَ حتى اعتلوا سُدَّةَ قلوب النَّاس، وإن المؤمنين تجمعهم المُثُلُ الطيبة، وتؤاخي فيما بينهم المبادرات الحسنة، وكل مؤمن متواضع سهلٌ لَيِّنٌ جانبه هو في عين الله ترعاه وتحرسه، ومن تجبَّرَ فتعالى فإن إزار الله لا تمسُّه أطرافٌ نجسةٌ خرقاء.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن إِلْفٌ مألوفٌ، ولا خير في من لا يَأْلَفْ، وخيرُ النَّاس أنفعهم للنَّاس»(18)، وعن جابر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أخبركم على من تحرم النَّار غداً؟ على كل هَيِّنٍ لَيِّنٍ قريبٍ سهلٍ»(19).

ثانياً.. مغانمُ أُخُوَّةِ الإسلام:

إذا ما فُتِحَ للواحد منا باب عريض كي يلجه فينال منه خيراً عظيماً؟

إذا ما مُنِحَ الواحد منا تأميناً مستديماً على مسراته في الدارين؟

إذا ما بُذِلَتْ بين أيادينا عطاءات سخية لا يغور مَعِيْنُهَا؟

(16) ابن حجر العسقلاني: «المطالب العالية»، كتاب الخلافة والإمارة، باب الترهيب من الظلم وإعانة الظلمة، حديث: (2187).

(17) عبد الله بن مُحَمَّد بن إبراهيم العبسي المعروف بابن أبي شيبة: الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، الرياض، 1409هـ. كتاب الزهد، ما ذكر في زهد الأنبياء وكلامهم عليهم السلام، كلام عكرمة، حديث: (34811).

(18) مُحَمَّد بن سلامة القضاعي المصري: مسند الشهاب، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت، 1986م. باب المؤمن إِلْفٌ مألوفٌ، حديث: (123).

(19) ابن حجر العسقلاني: «المطالب العالية»، كتاب الرقائق، باب الترغيب في التسهيل في أمور الدنيا، حديث: (3242).

فهل يطيق عقل سليم أن يدع منابع الماء الزلال التي فيها شفاء للناس، مستبدلاً بها ماءً آسنًا يُبْلِي الجسد، ويعكِّرُ من صفو النُّفوس!!

وهل من الحكمة أن نخوض غمار صراعات ستجلب لنا الوبال في الدارين، مُلْهِيَةً إيَّانا عن الاشتغال بما تستقيم به دنيانا، وتتورَّدُ بمعيَّته براعم آخرتنا!!

إن الأُخُوَّةَ التي تُبْنَى لَبِنَاتُهَا الأولى مستنيرةً بفقه الشريعة السماوية المُعْجِزَةِ هي نافذةٌ مُشَرَّعَةٌ للخير تكون بمثابة تأمينٍ على مسراتنا في الدارين، إذ إننا نحصد من ورائها عطاءاتٍ سخيةً لا تغور، وسلامة مكفولة لا تحول.

إن من يَرُدُّ يَدَ أبي بكر الصِّدِّيق الممدودة له مولِّياً دُبُرَهُ عنها، ومُقْبِلاً على مبايعة الأَخْنَسِ بن شُرَيْقٍ (20)هو كالأنعام بل أضل سبيلاً، فقد قَتَلَ نفسه بيده، وأفسد زرعه بِمِعْوَلِهِ، فجزاؤه من جنس عمله بعد أن أفضى إلى ما قَدَّم، فمن صاحب هؤلاء الرُّعَاءَ في الدنيا فأحرقوه فيها، فعليه أن يعلم أنهم هم رفاقه في النَّار يلعنهم فيلعنونه، وانظر إلى هذا البيان الإلهي الفَصْلِ يصور حال هؤلاء الأقران في الآخرة: (وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (58) هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (59) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (60) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ) [ص: 61 – 64].

(20) إن مَثَلَ الصِّدِّيق والأَخْنَسِ كَمَثَلِ الحيِّ والميِّت، والجنَّة والنَّار، والثُّريا والثَّرى، فالأول قال فيه صلى الله عليه وسلم: «**إن أَمَنَّ النَّاس عليَّ في ماله وصحبته أبو بكر، ولو كنت مُتَّخِذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوَّة الإسلام، لا تَبْقَيَنَّ في المسجد خَوْخَةٌ إلا خَوْخَةُ أبي بكر**». مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر، حديث: (4494). وعن عائشة، قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه «**ادع لي أبا بكر، أباك، وأخاك، حتى أكتب كتاباً، فإني أخاف أن يتمنَّى مُتَمَنٍّ ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**». مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر، حديث: (4503).

والثاني هو الأَخْنَسِ بن شُرَيْقٍ الثَّقَفِيُّ، الذي قَدِمَ على النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فأظهر له الإسلام، فأعجب النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ذلك منه، وقال : إنما جئت أريد الإسلام، والله يعلم أني صادق . وأشهد الله على ما في قلبه، ثُمَّ خرج من عند النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فمرَّ بزرع لقوم من المسلمين، وحُمُرٍ، فأحرق الزرع، وعَقَرَ الحُمُرَ، فأنزل الله عز وجل : (**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ**) [البقرة: 204 – 205] مُحَمَّد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد مُحَمَّد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، 2000م.سورة البقرة، القول في تأويل قوله تعالى: (**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ**)، حديث:3598).

إن لأُخُوَّةِ الإسلام مكاسب عزَّ نظيرها، لا يبصرها إلا من رضي الله عنه فأرضاه، ولا يَحِيْدُ عن سُبُلِهَا إلا من سخط الله عليه فأَرْدَاهُ، وهذه باقة مختصرة من غنائم التآخي الحميد، غاية طموحها أن تُحْسِنَ تصوير جَنَّةِ المحبَّة في الله الأحد الصمد:

1- الله مَعَكَ: إن من الثمار الدانية للعلائق القائمة بين المؤمنين على نهج النُّبُوَّةِ، أن الله يكافئ المؤمن على كل معروف يسديه لإخوانه بأضعاف كثيرة لا يمكن توقع نوعها أو التخمين بحجمها، كما أنه لا يطيق عقل الإحاطة بأزمانها أو أماكنها.

قال فداه أَبِي وأُمِّي: «من مشى في حاجة أخيه المسلم؛ كتب الله له بكلِّ خطوة يخطوها حسنةً إلى أن يرجع من حيث فارقه، فإن قُضِيَتْ حاجته خرج من ذنوبه كيوم ولدته أُمُّهُ، وإن هَلَكَ فيها دخل الجنَّة بغير حساب»(21).

2- الله يَغْفِرُ لك: إن النُّفوس التوَّاقة لرحمة الله لا تدَّخِرُ سبيلاً تسلكه لنيل مغفرة ربها إلا خاضته أَيَّاً كانت الأثمان باهظة، ومهما كانت الأخطار محدقة، إن من الطرق السريعة والمعبدة لِرَشْفِ شَهْدِ الرحمة الإلهية الخصبة، محبَّة في الله تُآخِي بين قلبين، وتقرِّب بين مؤمنين.

عن أبي قلابة قال: «التقى رجلان في السوق فقال أحدهما لصاحبه: يا أخي، تعال ندعوا الله ونستغفره في غَفْلَةِ النَّاس لعلَّه يغفر لنا، ففعلا، فقضى لأحدهما أنه مات قبل صاحبه، فأتاه في المنام فقال: يا أخي، أشعرت أن الله غفر لنا عشية التقينا في السوق»(22).

3- الله يُحِبُّكَ: إن محبة الله تعني باختصار شديد؛ توفيقاً في الدنيا، ونجاة يوم الفزع الأكبر، لأن الله سيكون لك بمثابة قلبك الذي تعقل به، وعقلك الذي تتدبَّر به، ولسانك الذي تنطق به، وقلمك الذي تخطُّ به، ويدك التي تبطش بها، وهذا سيفضي بك إلى ما تنشده شغاف الأرواح، من ترحال مبهر في بلاد الأفراح، حيث جنان أَخَّاذة لا تعرف الأتراح.

(21) ابن حجر العسقلاني: «المطالب العالية»، كتاب الزكاة، باب الحث على المعروف وإعانة الملهوف وإغاثته، حديث:(1025).

(22) ابن أبي شيبة: «مصنف ابن أبي شيبة»، كتاب الزهد، ما ذكر في زهد الأنبياء وكلامهم عليهم السلام، ما قالوا في البكاء من خشية الله، حديث: (35021).

يروي لنا سيدنا أبو هريرة، عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، «أن رجلا زار أخاً له في قرية أخرى، فأَرْصَدَ(23) الله له، على مَدْرَجَتِهِ(24) مَلَكاً فلمَّا أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أَخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّهَا(25)؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»(26).

4- الله يُنْعِمُ عَلَيك: إذا كانت نِعْمَةٌ واحدة من أَنْعُمِ الله لا تحصى كالبصر مثلاً، فكيف بِنِعَمٍ كثيرةٍ تنسكب بركةً وطهراً ومعافاةً في الدنيا والآخرة على المؤمن لتزيده خيراً على خيرٍ، فما أحسن نِعَمَ الله وما أنفسها، وإن الصُّحبة في حُبِّ الله وحده من دون اتخاذ أي شريك أرضيٍّ وضيعٍ له سبحانه – من منافع الدنيا البائدة لا محالة – هي قمرٌ وَضَّاءٌ يَنْطِفُ نِعَماً عديدة، ويَنْثُرُ أنواراً فريدة، لا يُحْجَبُ عن أطيافه إلا مغبونٌ قد مَسَّهُ الشيطان بِتِبْلٍ مبين.

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لله عند أقوامٍ نِعَماً يُقِرُّهَا عندهم ما كانوا في حوائج النَّاس ما لم يملُّوهم، فإذا ملُّوهم نقلها من عندهم إلى غيرهم»(27).

5- الله يُدْخِلُكَ الجنَّة: على أعتاب الجنَّة تنحسر الحسرات، وتنهمر المسرَّات، فلا أنين هناك أو آهات، ولا نوازل أو مُلِمَّات، ونحن المؤمنين غايتنا دخول جنات عرضها السماوات والأرض، ننجو بولوجها من نارٍ لوَّاحة للبصر، لا تُبْقِ ولا تَذَر، فمن لنا غير الله يرفع الأستار لنا عن أبواب جنانه، ويحجب عنا لهيب نيرانه، وإن لحيازة رضا الله عنا قنوات، وللظَفَرِ برحمته موجبات، وإن الأُخُوَّةَ في الله ولله غيمةٌ معطاءةٌ يُسْتَسَقَى منها وبها فيض الله القدير.

عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أي عبد زَارَ أخاه في الله عزَّ وجلَّ، نودي أن طِبْتَ وطابت لك الجنَّة، ويقول الله عز وجل: عبدي زَارَ فِيَّ، عَلَيَّ قِرَاهُ(28)، ولن أرضى لعبدي قِرَىً دون الجنَّة»(29).

(23) أَرْصَدَ: أي أقعده يرقبه.

(24) مَدْرَجَتِهِ: المدرجة هي الطريق وسمِّيت بذلك لأن النَّاس يدرجون عليها أي يمضون ويمشون.

(25) تَرُبُّهَا: أي تقوم بإصلاحها وتنهض إليه بسبب ذلك.

(26) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله، حديث: (4762).

(27) الطبراني: «المعجم الأوسط»، باب العين، من بقية من أول اسمه ميم من اسمه موسى، حديث: (8513).

(28) عَلَيَّ قِرَاهُ: أي علي ضيافته.

(29) عبد الله بن مُحَمَّد البغدادي المعروف بابن أبي الدنيا: الإخوان، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1988م. باب في زيارة الإخوان، حديث: (100).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من عاد مريضاً أو زار أَخاً له في الله ناداه منادٍ أن طبت وطاب ممشاك وتبوَّأت من الجنَّة منزلاً»(30).

ثالثاً.. مُذْهِبَاتُ أُخُوَّةِ الإسلام:

إن البحار الزاخرة بالأسرار العجيبة، قد تُبَدِّدُ خيراتها جَرَّاءَ سمومٍ تخالط أمواجها المِقْدَامة!

وإن الغابات الرائعة التي سَحَرَتْ بأشجانها قريحة شاعرٍ حالمٍ، وريشة رسامٍ محترفٍ، قد تواري إطلالتها نَارٌ متهوِّرَةٌ داهمت أغوارها!

وإن معزوفة الصباح البريئة التي يؤديها بإخلاص عندليب حبيب ناشراً في قلوب النَّاس آمالاً وبشائراً، قد يجففها تهور صياد معتوه لا يعرف غريماً، ولا يبصر هدفاً!

وإن الصداقة السامقة ذات التاريخ النظيف من شوائب الأنا، قد يَفُتُّ عضدها، ويَمْتَصُّ دمها، ذنب صغير، أو وزر زنيم، لتغدو الحدائق العامرة بالمحبة صحراء مجدبة لا تؤوي قلباً كسيراً ولا تروي وَرْدَاً يتيماً.

وإن من المخاطر المحدقة التي تَفُضُّ عرى الأُخُوَّةِ الوثقى ما يقدِّمه لنا على هيئة طاقةِ أزاهيرٍ جُنِيَتْ من رياض الشريعة الغَنَّاءِ البيان الآتي:

1- لا تُرَوِّع مسلماً: يا أحانا الحبيب في الله تعالى، لا تزرع الرُّعب والفَزَعَ في قلب أخيك المؤمن، بل وَطِّنِ الأمن والسكينة في رحاب نفسه المُقِرَّةِ بوجود الله سبحانه.

قال ابن عمر: أول مشهد شهده زيد بن ثابت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة الخندق، وهو ابن خمس عشرة سنة، وكان فيمن ينقل التراب يومئذ مع المسلمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَمَا إِنَّهُ نِعْمَ الغلام»، وغلبته عيناه يومئذ، فَرَقَدَ، فجاء عمارة بن حزم، فأخذ سلاحه وهو لا يشعر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا رُقَادٍ نِمْتَ حتى ذهب سلاحك»، ثُمَّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من له عِلْمٌ بسلاح هذا الغلام

(30) محمد بن عيسى الترمذي: سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، مصر، 1975م.: كتاب الذبائح، أبواب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في زيارة الإخوان، حديث: (1980).

؟»، فقال عمارة بن حزم: أنا يا رسول الله أخذته فَرَدَّهُ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُرَوَّعَ المؤمن، وأن يؤخذ متاعه لاعِباً وَجَدًّا(31).

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: حدَّثنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، أنهم كانوا يسيرون مع النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه، ففزع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لمسلم أن يُرَوِّعَ مسلماً»(32).

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من نظر إلى أخيه نَظْرَةً تخيفهُ؛ أخافه الله يوم القيامة»(33).

2- نحن نظراء في الخَلْقِ: أنا لست خيراً من أحد، هذه هي قناعتي، وإذا مَنَّ الله عليَّ بتميُّزٍ أَبَزُّ به أقراني، فذلك فضل الله آتاني إياه تَفَضُّلاً منه سبحانه، وما حصدته بقوتي أو قطفته بحكمتي:

إِذا لَم يَكُن عَونٌ مِنَ اللَهِ لِلفَتى فَأَكثَرُ ما يَجني عَلَيهِ اِجتِهادُهُ

وفي ضوء هذه المُسَلَّمَةِ فإنني لن أبيح لنفسي يوماً ما أن أنظر إلى أحد من إخوتي المسلمين نظرة ازدراء، ولن أَمتَهِنَ الآخرين بأيِّ دعوى وتحت أيِّ مُسَوِّغ، فأنا شريكٌ في الإنسانية مع البشر جميعاً، وشقيقٌ في الدِّين مع أتباع الرسالة الخاتمة، وإن الشراكة لا تستقيم إلا بالاحترام، وإن الأُخُوَّةَ لا تَحْيَى إلا بالتراحم، وكلا هذين المنطلقين يَلْفُظُ السُخرية، ويَمُجُّ دَنَسَ أدرانها، ويُحَرِّمُ الكِبْرَ، ويحارب طعناتِ أسيافه.

قال تعالى محذراً المؤمنين من خُلق السخرية الذميم: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [الحجرات: 11].

(31) الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1990م.كتاب معرفة الصحابة، ذكر مناقب زيد بن ثابت كاتب النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، حديث: (5770).

(32) أبو داود: «سنن أبي داود»، كتاب الأدب، باب من يأخذ الشيء على المزاح، حديث: (4372).

3- أحمد بن الحسين البيهقي: شعب الإيمان، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، الرياض، 2003م. التاسع والثلاثون من شعب الإيمان، فصل في ذكر ما ورد من التشديد في الظلم، حديث: (7192).

وعن الحسن البصري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن المستهزئين بالنَّاس يُفْتَحُ لأحدهم باب في الجنَّة، فيقال له: هَلُمَّ هَلُمَّ، فيجيء بكربِهِ وغَمِّهِ، وإذا جاء أغلق دونه، فما يزال كذلك حتى إن أحدهم يفتح له الباب من أبواب الجنَّة، فيقال له: هَلُمَّ فما يأتيه من الإياس»(34).

وقال إمام الهدى صلى الله عليه وسلم: «يحشر المتكبِّرون يوم القيامة أمثال الذَّرِ في صور الرجال يغشاهم الذُّلُ من كل مكان، فيساقون إلى سجنٍ في جهنَّم يسمى بُوْلَسَ تعلوهم نار الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ من عُصَارَةِ أهل النَّار طينة الخَبَال»(35).

ومن تعاليمه الحكيمة أيضاً: «وإن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخرَ أَحَدٌ على أَحَدٍ، ولا يبغي أَحَدٌ على أَحَدٍ»(36).

3- الذنوبُ تحرقُ أُلْفَةَ القلوب: كنت أرى الذنب في خُلُقِ دابَّتي، هكذا كان أهل السلف الصالح يلحظون الآثام، فهذه النظرية لا تغادر مناحي حياتهم كافة، فالآثام سَمٌّ قاتلٌ سيفتك بمشاريعهم وسينسف كل طموحاتهم، إن المؤمن يحيى في ظلال معادلة نافعة يوجزها هذا الذِّكر الكريم: الله معي، الله شاهدي، الله حاضري، الله مطلع عَلَيَّ، وهي التي تجعله يَفِرُّ من الوقوع بمستنقع الخطايا فراره من الموت الزؤام، فهو يدرك أن أَلْسِنَةَ الذنوب قادرة على أن تطال أثواب الأُخُوَّةِ الصادقة لتحرقها، وتجعلها رماداً هَزْلاً تعبث به أرق الأنسام.

قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم: «والذي نفس مُحَمَّدٍ بيده ما تَوَادَّ اثنان فَفُرِّقَ بينهما، إلا بذنب يُحْدِثُهُ أحدهما»(37).

4- التطرُّف الهدَّام حرام: ما أحسن الاعتدال في المأكل والملبس والمسكن، وفي الظنِّ والقول والعمل، فهو يحرر النُّفوس من التكلُّفِ المنهي عنه، ويعالج في الفرد والمجتمع مشاعر التحاسد والتباغض الجارحة، وإن من أشكال التطرف التي تُشَعِّبُ الأُمَّةَ جماعاتٍ متنافرةً التفاخر بالأَنساب، والتطاول على النَّاس

(34) البيهقي: «شعب الإيمان»، التاسع والثلاثون من شعب الإيمان، فصل فيما ورد من الأخبار في التشديد على من اقترض منْ حديث: (6465).

(35) الترمذي: «الجامع الصحيح»، الذبائح، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث: (2476).

(36) مسلم: كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهله، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنَّة وأهل النَّار، حديث: (5218).

(37) أحمد بن حنبل الشيباني: مسند أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت،2001م. ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عمر، حديث: (5200).

بالأَحساب، وهذا سِحْرٌ خطير يتأذَّى منه النَّاس جميعاً بسبب ما يدسُّهُ في نفوسهم من مهانة لا يرضى عنها عاقل أو يَحْمِدُهَا مُنْصِفٌ، وقد جاء الإسلام على مجتمع مُعْتَلٍّ بلعنةِ هذا المرض المُعْدِي، فطفق يقلِّمُ أظفارهُ ويَسْتُرُ عوراته، جاعلاً إيَّاه سلعةً نافعةً، لا بضاعةً كاسدةً، فالتقوى هي المعيار في التفاضل بين النَّاس حصراً، وما هو دونها فهو دونها.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي: ألا إني جعلت نَسَبَاً، وجعلتم نَسَبَاً، فجعلت أكرمكم أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا: فلانٌ بن فلانٍ خيرٌ من فلانٍ بن فلانٍ، فأنا اليوم أرفعُ نسبي، وأضع نسبكم أين المتقون»(38).

وكان من آخر ما أوصى به سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام قبل أن يُرْفَعَ إلى الرفيق الأعلى ناهياً عن خُلُقِ التعالي على النَّاس بذريعة رفعة النَّسب، وكريم الحَسَب، قوله مخاطباً آل بيته الأطهار: «يا فاطمة بنت رسول الله، يا صفية عمَّة رسول الله، اعملا لِمَا عند الله، فإني لا أُغْنِي عنكما من الله شيئاً»، ثُمَّ قام من مجلسه ذلك، فما انتصف النهار حتى قبضه الله(39).

سبل بناء الوحدة الإسلامية المفروضة

إن أخوة الإسلام تعد دعامة رئيسة لتلاقي المسلمين ووحدتهم، فكل علاقة سليمة بين مسلمين اثنين تمثل لَبِنَةً صلبةً في بناء الوحدة الإسلامية المفروضة، وإن الجبال الشامخة مجبولة من الحصى، وإن البحار الزاخرة نشأت من تلاحم حبات المطر.

لقد جاء الخطاب القرآني الكريم مرسخاً هذه الحتمية باعتبارها خياراً فريداً أمام المسلمين لا مناص لهم عن اللجوء إليه كونه ضمانةً لبقائهم، وحمايةً لشريعتهم.

فانظر آيات الفكر الجَمْعِيِّ في الذِكْرِ الحكيم وهي تُعَرِّفُ المؤمنين بأركان دِيْنِهِم: قال تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [الحج: 77].

وتفكَّر رويداً كيف أدب الوحي الأول المسلم على أنه عضوٌ من جسدٍ واحدٍ هو أُمَّتُهُ المسلمة، فهو لا يمكنه أن ينفصم عن كيانها أيَّاً كانت المسوغات، فقد رسخت التربية الإسلامية هذا اليقين في عبادات المسلم ومعاملاته وأخلاقه كافة، فاستمع للمسلم وهو يرتل هذه الآيات من السَّبْعِ المَثَانِي من أُمِّ الكتاب في اليوم عشرات المرات قائلاً: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) [الفاتحة: 5 – 6]، فإن مضمون هذا التماثل في القراءة بلفظ

(38) الطبراني: «المعجم الصغير»، من اسمه عبد الله، حديث: (643).

(39) أحمد بن الحسين البيهقي: معرفة السنن والآثار، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار قتيبة ، الطبعة الأولى، دمشق – بيروت1991م.كتاب الصلاة، صلاة المريض، حديث: (1156).

(إيَّاكَ) و(اهدنا) يُتَرْجَمُ بهذه الفِكْرِةِ: إننا نحن أبناء الإسلام جميعاً؛ نُقِرُّ لك يا الله بالوحدانية بقلب واحد، ونتقرَّبُ إليك بالعبادة بصوت واحد، لأننا يا مولانا ثابتون على إيمانٍ مكينٍ بأنه لا معينَ ولا هاديَ لنا من دون جلالك سبحانك.

والوحي الثاني أوضح للمسلم بما لا يدع أي هامش للتأويل والتحوير بأن لزوم الجماعة المسلمة هو قارب نجاة من طوفان ساحق، والابتعاد عنها مَهْلَكَةٌ ومَفْسَدَةٌ ماحقة، فاقرأ سيدي الفاضل منصتاً بقلبك ما يحدثنا به سعيد بن المسيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الشيطان يَهُمُّ بالواحد والاثنين، فإذا كانوا ثلاثة لم يَهُمَّ بهم»(40)، وما يرويه لنا زيد بن ثابت من قول النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «ثلاث لا يُغَلُّ عليهنَّ قلبُ امرئٍ مسلمٍ: إخلاص العمل لله، والنُّصح لأئمَّة المسلمين، ولزوم جماعتهم»(41).

وإن هذا التوجيه القوليَّ النَّبَوِيَّ كان يُتْبَعُ بتدريبٍ عمليٍّ ميدانيٍّ يوظِّفُ الأحداث في تكريس ثقافة التعاضد بين المسلمين، وذلك بوصف حكم مبدأ العمل صفاً واحداً فَرْضُ عَيْنٍ على كل مسلم، فلا بديل عن أدائه بفريضةٍ أو نافلةٍ أو مُسْتَحَبٍّ آخر، وهو أيضاً لا يُقْضَى ولا يُفْدَى ولا يُكَفَّرُ عن الحؤول عنه بأيِّ كفارةٍ مهما عظمت، فإن من قطع وريد الجماعة وأسال دم الأُمَّةِ هو مقترفٌ لكبيرةٍ مدمِّرةٍ، ستجعل في رقبته إثماً مضاعفاً تأَتَّى جَرَّاءَ قَتْلِهِ لنفسه بإهلاكه لشركائه أولاً وهو عين الانتحار، وقَتْلِهِ لإخوانه عبر تمزيق صفوفهم ثانياً وهو بئس الخيانة.

الشِّقاقُ عِلَّةُ الأُمَمِ وبلاؤها المُعْضِل

إن الشقاق الذي يبدِّدُ القويَّ، ويُفْنِي الضعيف، عِلَّةُ الأُمم وبلاؤها المُعْضِل، والتربية الإسلامية قدَّمت للمسلمين دروساً وعبراً أفادتها من تحليل مجريات السيرة النبوية المطهرة، بحيث مكنتهم من خلالها أن يبصروا بأم عينهم، وأن يعقلوا بشغاف أفئدتهم، حقائق لا يتحوَّل عنها إلا ضالٌّ مُضِلٌّ مطرود من رحمة الله عياذاً بالله.

وحتى تتحقق لنا غاية التمثيل لما أسلفنا من طرح يمكننا أن نسلط الضوء على نفائس غزوتي بَدْرٍ وأُحُدٍ التي لا تبليها الأيام أبداً، بل ما أحوجنا اليوم لمراجعتها أكثر من أي وقت مضى، فتوجيهاتهما لا تسقطان بالتقادم فتذبلان، بل تتألقان مع كل جيل مسلم وتزهوان.

لقد فَجَأَ المسلمين يوم غزوة بدر الكبرى نبأ أول معركة ستجمعهم وجهاً لوجهٍ مع أهلهم، و أبناء عمومتهم، وجيرانهم، من عتاة الكفر في مكة، ليهبوا ملبيين نداء الله ورسوله بالرضا واليقين، (امض يا رسول الله لما أردت،

(40) مالك: «موطأ مالك»، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في الوحدة في السفر للرجال والنساء، حديث: (1780).

(41) ابن ماجه: «سنن ابن ماجه»، المقدمة، باب في فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب من بلَّغ علماً، حديث: (228).

فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن يلقانا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله)(42).

ثُمَّ ائتلف الصحابة حول سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم مبايعيه على السراء والضراء، حيث لا دنيا ينشدونها بل آخرة يطمحون للفوز بِمِنَحِهَا، والنجاة من مِحَنِهَا، فأنالهم الله نصراً مظفَّراً كسر هيبة الوثنية الخرقاء، وسَفَّهَ أحلامها الباطلة، وشفى بفضله صدور قوم مؤمنين.

ثُمَّ لم يلبث سَدَنَةُ الأصنام أن أعادوا الكَرَّةَ حالمين بنصر قد يرجح كفة التوازن المسلوب منهم في أحسن الأحوال، فكان يومٌ التقى فيه الجمعان في موقعة أُحُدٍ حيث كَلَّلَ الله طلائع الغزوة ببوارق نصر كبير للمسلمين، لولا أَنْ وَلَجَتْ إلى قلوب بعض المؤمنين آفات التعلق بهوىً مطاعٍ رخيصٍ، جاء على هيئة نهمٍ بالغنائم التي لاحت بشائرها، ليعصي الرماة المتمترسون على سفح جبل أُحُدٍ الحزين تعاليم قائدهم العام مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم، وقائدهم المباشر عبد الله بن جبير رضي الله عنه، حيث مزَّقت مشاربُ الدنيا لُحْمَةَ الصفوف، وفرقت أيادي الأُخْوَةِ الصامدين كالبنيان المرصوص، لتحيق بجيش المسلمين الهزيمة البغيضة بعد نصر محتم، والتي كادت تودي بحياة رسول الله لولا عصمة من القتل جَبَّتْ عنه رماح القوم وسيوفهم.

فأنزل الله فيهم آيات محكمات تُقَرِّعُ الفرقة، وتعزز فريضة الصمود في خندق الواحد، وتؤكد أن الأخوة الإسلامية الخالصة المتينة هي ركن إسلامي أصيل يقوم على الطاعة والولاء والثبات على القِيَمِ والمُثُلِ التي تكفل حاضراً آمناً للجماعة، ومستقبلاً مزهراً للأُمَّةِ، أَيًّا كانت الظروف ومهما تباينت المستجدات، قال تعالى: (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) [آل عمران: ١٥٢].

إن القارئ لنصوص الوحيين يتوثَّقُ من المخاطر المحدقة بالأُمَّةِ إذا ما حنث أبناؤها بعهود أخوة الإسلام، وصبأوا عن مواثيق معاهدة الوحدة الإسلامية المقدسة بين المسلمين، وإن النصوص التي تشترط عليهم المحافظة على البيت المسلم الكبير محصَّناً من الغرباء تتوزع في أكناف القرآن والسُّنَةِ على نحو واسع وصارخ، ومن نماذج ذلكم الهدي الإلهي ما يأتي:

قال تعالى: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) [النساء: 115]. إذاً النَّار مثوى من فرق الشمل، وشَعَّبَ الأُمَّةَ في أودية شتى، فهو ناقضٌ للكعبة المشرَّفة حَجَرَاً حَجَرَاً بتقويض أهم غاياتها، وحارقٌ للمساجد فوق رأس المصلين بتحريف رسالتها، فالمسجد من

(42) الطبري: «جامع البيان في تأويل آي القرآن»، سورة الأنفال، القول في تأويل قوله تعالى (**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ**) [الأنفال: 7]، حديث: (14415).

مقاصده السامية أن نلتقي، والكعبة من حكمها البالغة أن نلتقي ، وذلك بغية أن نسير معاً في اتجاهٍ واحدٍ محددٍ بعنايةٍ تامةٍ، ودقةٍ مُحْكَمَةٍ.

قال عز وجل: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) [الأنعام: 159]، (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [آل عمران: 105]، إن الهلاك لا يُحْدِقُ بالولد العَاقِّ الذي أراد أن ينتقم من أسرة كريمة منعته من شذوذ أخلاقي محظور فراح يضرم النَّار في البيت الآمن ثأراً لمحافل الخَنَى التي فاته أن يتلطخ بنجاستها، لأن ألسنة اللهب ستقتل إخوانه الصغار بداية بسبب ضعفهم، ثُمَّ تلتهم ما تطيقه من سكان البيت ومتاعه، وإن مَثَلَ من يفرِّق القوم المتسوِّرين حول تفاهمات مشتركة إلى أقوام هَزْلَةٍ غَضَّةٍ مثَلَ من يحرق آمال أهله وجميع أشيائهم.

عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يجمع الله هذه الأُمَّةَ على الضلالة أبداً»، وقال: «يد الله على الجماعة فاتبعوا السواد الأعظم، فإنه من شَذَّ شَذَّ في النَّار»(43)، إن من خرج عن نشيد الأُمَّةِ الموحد سيظهر صوته قريباً جداً كأسوء عورات الدنيا قاطبة، ومن فارق الجماعة سَيَسُومُ سَوْمَ أضلِّ البهائم الشاردة.

وقد اعتلى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم المنبر يخطب النَّاس، فقال: «إنه سيكون بعدي هَنَّاتٌ وهَنَّاتٌ، فمن رأيتموه فارق الجماعة، أو يريد أن يفرق أَمْرَ أُمَّةِ مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم كائناً من كان فاقتلوه، فإن يد الله على الجماعة، وإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض»(44)، إن أخطر الدخلاء المتغلغلين في صفوف جماعة المسلمين هو رجل دُسَّ فيما بينهم فاكتسى أثوابهم، وحَلَبَ في آنيتهم، ثُمَّ طَفِقَ بخبثٍ يثقبُ قارباً مباركاً يُقِلُّهُم، وإن أحمق النَّاس من مكَّن زائغَ القلب من أُذُنَيهِ، فسمح له أن يجرَّه من ورائه كأنَّه دابَّة جرباء حَرْفُهَا أقلُّ خطراً من دفنها حَيَّةً، وعن عمر ابن الخطاب، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أخوف ما أخاف على أُمَّتِي كل منافقٍ عليم اللِّسان»(45).

وعن أبي هريرة، عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة فمات، مات مِيْتَةً جاهليةً، ومن قاتل تحت راية عِمِّيَّةٍ يغضب لِعَصَبَةٍ، أو يدعو إلى عَصَبَةٍ، أو ينصر عَصَبَةً، فَقُتِلَ، فَقِتْلَةٌ جاهليةٌ، ومن

(43) الحاكم: «المستدرك على الصحيحين»، كتاب العلم، ومنهم يحيى بن أبي المطاع القرشي، حديث: (355)،

(44) أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي: السنن الكبرى، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، 2001م.كتاب الصيام، كتاب الاعتكاف، قتل من فارق الجماعة، حديث: (3364).

(45) أحمد بن حنبل: «المسند»، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند الخلفاء الراشدين، أول مسند عمر بن الخطاب حديث: (142).

خرج على أُمَّتِي، يضرب بَرَّهَا وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مِنِيٍّ ولستُ منه»(46)، إن سوء الخاتمة أتعس نهاية للمرء في الدارين، فلا ألسنة النَّاس ترحمه بل هو قد غدا مَوَّالَهُمُ المُغَنَّى في كل محفل، ولا لعنة الله ترحمه فإنه اختار أنحس النهايات الكئيبة على الإطلاق، وإن الالتزام بفقه جماعة المسلمين يقي من سوء الخاتمة، ويحصِّنُ من عداوة المؤمنين وقسوة بطشهم، ولا بارك الله فيمن رضي أن يتبرَّأ رسول الله منه، فقد خسر شفاعةً ما أحوجه لها يوم يقوم الأشهاد، وباء من دنياه بقلب ميت، وعقل معطل.

وقال الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم في خطبته الخالدة يوم حجة الوداع المشهود: «لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض» (47)، إن من أوقد نار فتنة بين المسلمين سواء أشعل نارها بيده أو بلسانه أو بقلمه أو بصمته فهو قاتل أسهم في معركة خاسرة أَيَّاً كانت نتائجها حيث لا يوجد طرف منتصر فيها، وهو بصريح عبارة البيان النَّبَوِيِّ الصحيح خارج عن ربقة الإسلام.

لماذا يَجْمَعُهُمُ الباطلُ ويُفَرِّقُنَا الحَقُّ؟!

إن عصارة الحديث المترامي الأطراف السابق الذي سلَّط الضوء على مقومات أخوة الإسلام وآثارها ومُذْهِبَاتِهَا، كونها تمثِّل الخطوة الأول على طريق بناء مجتمعٍ مسلمٍ موحَّد قائمٍ على قلب رجلٍ واحدٍ، ووَفْقَ منهجٍ شريعةٍ واحدةٍ، ومن أجل تحقيق أهدافٍ محددةٍ بعنايةٍ فائقةٍ، تتجلى بطرح الأسئلة الكبيرة الآتية:

ما دام الإسلام قدَّم لنا تصوراً واضحاً لماهية العلائق التي تجمع بين المسلمين على مستوى الأفراد، فلماذا نجد هذا التخاصم والاقتتال وفساد ذات البين عند المسلمين اليوم؟

وما دام الإسلام دعا أتباعه إلى الوحدة الفعَّالة، وحرَّم عليهم سائر أنواع الشقاق على مستوى الأُمَّةِ، فلماذا أُمَّةُ الإسلام تتهاوى من دولٍ إلى دويلاتٍ، ومن جماعاتٍ إلى مجموعاتٍ؟

لا ريب أن التشخيص نصف العلاج، ولابد لنا أن نعرف حقيقة الحالة المزرية التي انتهى إليه المسلمون اليوم، ثُمَّ نبحث عن الحلول الناجعة، وإن هذه الجهود الجبارة بحاجة إلى عمل مؤسساتي ضخم يجمع المتخصصين الشرفاء، كي يعاينوا عِلَلَ الأُمَّةِ المستعصية، ثُمَّ يحددوا مظاهرها وأسبابها، ليصفوا لها الدواء الشافي الكافي.

إن كيان الغرب الجائر المتربص بالمسلمين الدوائر يسعى في العقود الأخيرة برغم ما يملكه كل عضو فيه من قوة كبيرة تحفظ وجوده، إلى تشكيل تكتلات اقتصادية وعسكرية منيعة يحمي عبر ائتلافها مقدَّراته المالية، وإنجازاته العلمية، ومكتسباته في مجالات الاستثمار المتباينة المنتشرة في مختلف أصقاع المعمورة وخارج نطاق المعمورة

(46) مسلم: كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، حديث: (3525).
(47) البخاري: كتاب العلم، باب الإنصات للعلماء، حديث: (120).

أيضاً، وذلك على مستوى الكواكب السماوية النائية، وهو بهذه الاتحادات يحقق نقلات نوعية على مختلف الأصعدة الحياتية.

وإن من أشكال جهوده وأنشطته الموازية المبذولة في أثناء بحثه الممنهج عن شركاء أقوياء وأوفياء معتمداً الإنجاز ذلك على توصيات جُهْدٍ مؤسساتيٍ ضخمٍ رُصِدَتْ لإنجاحه إمبراطوريات إعلامية هائلة، وأرصدة مالية ذات أرقام فلكية، تَزَايُدُ أنماط كدحه المضني الدؤوب من أجل تمزيق أرتال المسلمين أولاً على الرغم من علمه المسبق بحالها المزري في موضوع الانضباط والتجانس، وثانياً عَمَلُهِ على إيغال الطعنات في جسدها المريض أصلاً مع التزامه بضرورة تخضيب خنجره بأكثر أنواع السموم فتكاً، وذلك مع استمرار دعواته اليومية اللحوحة الرنانة إلى ضرورة إقامة مجتمع إنساني عالمي عادل لا يأكل فيه القوي الضعيف، ولا يتعالى فيه المتقدِّم على المتخلِّف، بل يعيش فيه النَّاس شركاء في كل مقومات الحياة الرغيدة.

والغريب في شأن ما آلت إليه أوضاع المسلمين أنهم غدوا – ولله المشتكى – بمثابة دمىً متحركةً يُنْجِزُ الآخر فيهم طموحاته المحرَّمةِ من دون ممانعة حقيقية من قبلهم والتي عساها أن تقلل من خسائر المسلمين وتعطِّل من تقدم الغازي المعتدي نحوهم في أثناء سعيه لتحقيق مشروعه الآثم الوحشي.

(إن الفرقة بين المسلمين هوَّنت أمرهم، وجعلتهم حجة على الإسلام ومبادئه، حتى لقد قال الأعداء لو كان الإسلام خيراً ما كان أهله على هذه الحال من الخلل والاضطراب والبعد عن أسباب القوة، وقد تحكموا فينا فإن حاولنا أن نجتمع خَذَّلونا، أو خَذَلَنَا الرؤساء الذين يوالونهم، ويستمدون القوة منهم، ويسيرون في مسارهم، ويدورون حول قطبهم، وأي غربة للإسلام أشد من أن من يدعوا إلى الوحدة الإسلامية تكون دعوته غريبة وصوته منكراً، كأنه يهاجم الإسلام، وفي كل الأحوال تكون دعوته صرخة في واد) (48).

إن التآخي القائم على منهج الشريعة الخاتمة بين المسلمين في البيت الواحد، ثُمَّ بين المسلمين الجارين في البيتين، ثُمَّ بين المتجاورين في الحيين أو في القريتين وهكذا دواليك، ثُمَّ بين الشركاء في المصير المحتوم من أبناء الإسلام في سائر الدويلات المسلمة، هو الطريق الوحيد الذي ينهي عناءات المسلمين من غوائل الشقاق وهموم الفرقة.

وإن التحصُّن في خندق واحد بغية مواجهة غارات الصليبية الرعناء الجديدة، ومؤامرات الصهيونية التي تحللت في سبيل تحقيق أهدافها من جميع القيم الإنسانية السماوية والأرضية، وحتى من الكثير من سجايا الحيوانات المحمودة، هو الحل الأوحد اليتيم لمكافحة السموم السرطانية التي تُسَرَّبُ عَنْوةً إلى قلوب المسلمين وعقولهم.

(48) مُحَمَّد أبو زهرة: الوحدة الإسلامية، دار الرائد العربي، بيروت، د– ت. ص (5 – 6).

وإن المخاض مع انطلاق الألفية الثالثة قد اشتد على الأُمِّ المسلمة الرؤوم، فقد شارفت – بإذن الله وفضله – على أن تضع مولودها الحضاري الإسلامي المرتقب، وإننا على يقين مطلق – لا يدانيه ريبٌ قَطُّ – أن جميع مخططات الغرب والشرق مجتمعة، ومن ورائها دسائس أذنابهم القصيرة والطويلة في بلاد المسلمين قاطبة، ستؤول بنعمة من الله سبحانه إلى سراب، وإن نصر الله وفرجه قد استوى ثمره الطيب بعدما شارفت مواسم الحصاد على إطلاق أغاريدها العذبة، وتهاليلها المباركة، وتكبيراتها المستبشرة، وهنالك يفرح المؤمنون بنصر الله، ألا إن نصر الله قريب.

المصادر والمراجع

- أحمد بن الحسين البيهقي: السنن الكبرى، تحقيق مُحَمَّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، بيروت، 2003م.
- أحمد بن الحسين البيهقي: شعب الإيمان، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، الرياض، 2003م.
- أحمد بن الحسين البيهقي: معرفة السنن والآثار، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار قتيبة ، الطبعة الأولى، دمشق – بيروت، 1991م.
- أحمد بن حنبل الشيباني: مسند أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت،2001م.
- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، تنسيق سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري، دار العاصمة – دار الغيث، الطبعة الأولى، السعودية، 1419هـ.
- جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي: تفسير الجلالين، دار الحديث، الطبعة الأولى، القاهرة، د – ت.
- الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1990م.
- سليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني: المعجم الأوسط، تحقيق طارق بن عوض الله بن مُحَمَّد ، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، د– ت.

- سليمان بن أحمد الطبراني: الروض الداني (المعجم الصغير)، تحقيق مُحَمَّد شكور ومحمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي – دار عمار، الطبعة الأولى، بيروت – عمَّان، 1985م.
- سليمان بن الأشعث أبو داود السِّجِسْتاني: سنن أبي داود، تحقيق مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، د–ت.
- سليمان بن خلف الأندلسي: المنتقى شرح الموطأ، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، القاهرة، 1332هـ.
- عبد الله بن مُحَمَّد البغدادي المعروف بابن أبي الدنيا: الإخوان، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1988م.
- عبد الله بن مُحَمَّد بن إبراهيم العبسي المعروف بابن أبي شيبة: الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، الرياض، 1409هـ.
- أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي: السنن الكبرى، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، 2001م.
- مُحَمَّد قطب: ركائز الإيمان، دار الشروق، الطبعة الأولى، 2001م.
- مُحَمَّد أبو زهرة: الوحدة الإسلامية، دار الرائد العربي، بيروت، د– ت.
- مُحَمَّد الغزالي: أخلاق المسلم، دار الريان، الطبعة الأولى، القاهرة، 1987م.
- محمد بن عيسى الترمذي: سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، مصر، 1975م.
- مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، تحقيق مصطفى البغا، دار العلوم الإنسانية، الطبعة الثانية، دمشق، 1993م.
- مُحَمَّد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد مُحَمَّد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، 2000م.

- مُحَمَّد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت،1993م.
- مُحَمَّد بن سلامة القضاعي المصري: مسند الشهاب، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت، 1986م.
- مُحَمَّد بن يزيد القزويني: سنن ابن ماجة، تحقيق مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية،بيروت، د- ت.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، ترقيم مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار الدعوة - دار سحنون، الطبعة الثانية، القاهرة، 1992م.

KAYNAKÇA (Latin Harfleriyle)

Beyhaki, Ahmed b. Hüseyin, es-Sünenü'l-Kübrâ, thk. Muhammed Abdülkadir Ata, Beyrut 2003.

_____, Şuabu'l-İmân, thk. Abdülali Abdülhamid Hamid, Riyad 2003.

_____, Ma'rifetu's-sünen ve'l-asâr, Beyrut 1991.

Ahmet b. Hanbel, el-Müsned, Beyrut 2001.

İbn Hacer el-Askalani, Ahmed b. Ali, el-Metalibu'l-aliyye, yy. 1419.

Mahalli ve Suyuti, Tefsiru'l-Celâleyn, Kahire ts.

Hakim en-Nisaburi, el-Müstedrek, Beyrut 1990.

Taberani, Süleyman b. Ahmed, el-Mu'cemu'l-evsat, thk. Tarık b. Ivadullah vd., Kahire ts.

Taberani, Süleyman b. Ahmed, er-Ravdu'l-dâni (el-Mu'cemu's-sağir), thk. Muhammed Şekur vd., Beyrut 1985.

Ebu Davud es-Sicistani, Sünenu Ebi Davud, thk. Muhammed Muhyiddin Abdülhami, Beyrut ts.

Endelüsi, Süleyman b. Halef, el-Münteka Şerhu'l-Muvatta, Kahire 1332.

İbn Ebi Dünya, Abdullah b. Muhammed, el-İhvân, thk. Mustafa Abdulkadir Ata, Beyrut 1988.

İbn Ebi Şeybe, Abdullah b. Muhammed, el-Kitabu'l-musannef fi'l-ehadisi ve'l-âsar, thk. Kemal Yusuf Hut, Riyad 1409.

Nesai, Ahmed b. Şuayb, es-Sünenu'l-kübra, thk. Hasan Şelebi, Beyrut 2001.

Kutup, Muhammed, Rekâizu'l-imân, yy. 2001.

Ebu Zehra, Muhammed, el-Vahdetü'l-İslamiyye, Beyrut ts.

Gazzali, Muhammed, Ahlaku'l-müslim, Kahire 1987.

Tirmizi, Muhammed b. İsa, Sünenu't-Tirmizi, thk. Ahmed Muhammed Şakir vd., Mısır 1975.

Buhari, Muhammed b. İsmail, Sahihu'l-Buhari, thk. Mustafa Buğa, Dımeşk 1993.

Taberi, Muhammed b. Cerir, Camiu'l-beyan fi te'vili'l-Kur'an, thk. Ahmed Muhammed Şakir, Beyrut 200.

İbn Hibban, Muhammed b. Hibban, Sahihu İbn Hıbban bi-tertibi İbn Balbân, thk. Şuayb Arnavut, Beyrut 1993.

Kudai, Muhammed b. Sellâme, Müsnedü'ş-Şihâb, thk. Hamdi b. Abdülmeci Selefi, Beyrut 1986.